نهر التاريخ ... رؤية إسلامية

تاريخ البشرية ماض وحاضر واستشراف للمستقبل . . . والتخوم الفاصلة بين هذه الأدوار تكاد تكون ذائبة ، والماضى يعيش فينا ولا نستطيع إنكاره ، والمستقبل فينا كالماضى سواء بسواء . . . إنها أضلاع الزمان الثلاثة التى لا تنفصل . . .

وعندما يتم الضغط على الماضى وحده تصاب الأمة بمرض الغياب التاريخى . . . كما أن الضغط على الحاضر - دون وعى بالماضى والمستقبل - غياب عن الذات ، ومغامرة بالحضارة كلها ؛ فى رحلة ضياع لسفينة بعدت عن معالمها ومرافئها الثابتة . . . !!

* * *

كل الأحجار فى التاريخ شواهد ناطقة تحكى قصة قوم كانوا هنا وصنعوا شيئًا . . . ولم توجد بعد أحجار صامتة . . ومن العبث أن نحاول إخراس أصوات الماضى التى تخاطب عقولنا ووعينا التاريخى الفطرى الذى يقول لنا : إننا جنس خاص . . إنسان تاريخى . . كائن يموت أفراده ، وتموت بعض شرائحه . . . لكنه باق إلى اللحظة الحاسمة . . . القارعة !!

* * *

فى أحقاب متفاوتة من التاريخ الإنسانى وضعت العناية الإلهية شارات ثابتة تأخذ بيد كل حضارة تريد الإقلاع من جديد نحو الإنسانية النقية . . .

قدم لنا أبونا آدم أول شارة حين أخطأ وتاب . . . فإدراك الخطيئة والإقلاع عنها خاصة إنسانية متفردة . . .

وقدم هابيل الشارة الثانية حين رفض أن يكون القاتل ورضى أن يكون المقتول . . . فى سبيل المبدأ . . .

وقدم كل نبى شارة أخرى هى خلاصة حياته ودعوته . . . . إن هذه الشارات التى بدأت بآدم ثم نوح ، وإبراهيم . . . وانتهت بمحمد (عليهم السلام) هى معالم الهدى فى التاريخ . . . وكلها ذات جوهر واحد ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [نوح : ٣]، والخلاف بينها فى التفاصيل الملائمة لحياة الإنسان عبر التاريخ . . .

* والانحراف فى تاريخ الإنسانية جاء من ابتعادها عن هؤلاء الهداة العظماء . . . إنها اصطرعت بعيداً عنهم . . . وتصارعت باسمهم بعيداً عن الحوار الباحث عن الحق . . . ودفعت أجيالاً كاملة لرفضهم . . . واخترعت النظريات ضدهم . . .

ولن يعود التاريخ إنسانيًا إلا إذا انصهر العقل فى بوتقة الإنسانية ، ليكون عقل إنسان . . . لا عقل شيطان !!

أجل : إن فى تيار التاريخ تصاميم سابقة وثابتة . . . لكنها لا تحول ـ ولم تحل ـ دون الإبداع . . . إنها معالم ثابتة دائمًا حتى لا تتوه الإنسانية فى الصحراء!!

فى نهر التاريخ يتدفق الماضى موصولاً بالحاضر والمستقبل . . . وتظهر القداسة فى بعض العصور كما تظهر النجوم العالية التى يسترشد بها الملاحون فى الليالى الطويلة المظلمة . . . فليست البشرية بمجموعها مقدسة ، كما أن هذه الإنسانية ليست مجموعة حيوانات مفترسة . . . إنها هذا وذاك . . . إنها أصلاً . . . «فى أحسن تقويم» . . لكنها فى أكثر مراحل التاريخ : فى «أسفل سافلين» . . . وستتبادل البشرية هذه الأدوار المتعاقبة إلى يوم القيامة . . .

وعندما يتآمر بعض المنسوبين إلى الإنسانية فيحاولون تحطيم فترات القداسة والمثال ، فإنهم يسعون ـ بوعى أو بغير وعى ـ لقيادة الإنسانية إلى نسبية كاملة ، وإلى ليل طويل معتم ؛ لا نجوم فيه (!!) وستغرق السفينة لا محالة . . . فالعقل والبصر لا يغنيان عن إشارات البصيرة الثابتة ، وكواكب الحقيقة !!

* كانت البشرية لا شيء . . . عدمًا لا ذكر له . . . أحيتها العناية الإلهية . . . وسوف تميتها بعد سلسلة حضارات متصارعة . . . ثم تحييها ليوم الحساب الأخير . . . فهكذا كانت لها بداية . . . وكان لها سياق وجود حي هو : هذا التاريخ وهذه الحضارات . . ثم سيكون لها رجعة إلى الله للحساب النهائي !!

لا استمرار أبدي . . . بل هي رحلة مغلقة . . . لها بداية ونهاية . . . بطلها الإنسانية . . . ولن تكون هذه الرحلة عبثًا باطلاً . . .

فالعناية الإلهية لا تخلق للَّهو ولا للَّعب . . . وحاشاها . . . إنها أعظم من أن تجعلنا دمى ، أو قطع شطرنج . . . إن لنا وجودًا بقدر مسؤوليتنا . . . إننا مكلفون بمهمة خالدة . . .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء : ١٦ ـ ١٨] . والحق «رسالة الأنبياء» . . . حداة القافلة الإنسانية وهداتها . . .

وفي النهاية تنتهي فصول الكتاب والملحمة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

فالغاية الإنسانية محتومة . . . والمصير محكوم بأعمال الناس ، وبفاعلية الإنسان الإيجابية الصالحة في التاريخ . . . ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء : ٩٤] ، لكن إذا انتهت دورة تاريخية وأغلق الستار ؛ فمحال أن يعود أصحابها قبل يوم البعث : ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

إنهم مسؤولون . . . لقد كانوا أحرارًا ، وكانت لديهم شارات الطريق وشروط الصلاحية ومؤهلات البقاء . . . لكنهم صدفوا عن كل ذلك واعتمدوا على أبصارهم المحدودة ؛ وعقولهم المكبلة بإطار وعي الزمان والمكان ، وخبرة الجيل الواحد . . . فاستحقوا الموت . . .

لقد استمرءوا أن يكونوا مستهلكين في التاريخ . . . مجرد موضوع من موضوعاته . . . ولم يرتفعوا إلى مستوى خلافة الله في صناعة الحضارة ، وعمارة

العالم، وتسخير كونه . . . لقد عاشوا فى دائرة الذات والمطالب الجسدية ، ولم يهتموا بالمطالب الروحية ، ولا بغايات الوجود . . .

* * *

نعم : إن نهر الزمان متدفق موصول لا تكاد تنفصل فيه لحظات الماضى عن لحظات الحاضر عن المستقبل ، لكن ذلك لا يعنى أن الزمان لا يمكن تقسيمه إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، وأن هذا التقسيم له وجود فى الواقع ؛ وهو وجود شعورٍ ووعى وحياة . . . والغاية داخلية وخارجية معًا ، فكل كائن حى له غاية خاصة به تتعاون جميع أجزائه من أجل تحقيقها . . إنها غايته الداخلية التى تنسجم مع الغاية الخارجية ؛ التى تربط كل غاية داخلية بالغاية الخارجية العامة ؛ وهى تحريك أجزاء الكائنات نحو مصير واحد ، يتم فيه الوصول إلى يوم السعادة الأبدية أو الشقاء الأبدى أو الفناء الأبدى .

إن وجود يوم ينتهى فيه التاريخ البشرى ويتم فيه الحساب العام حقيقة لا بد من التسليم بها ؛ فإن القول بأن التاريخ البشرى ـ الذى له بداية يعترف بها الجميع ـ ليس له نهاية ؛ هو أمر لا ينسجم ومنطق العقل ، ولا الدين كله . . . إنه يفقد التاريخ معناه ، ويجعله بلا معنى، والفرق بين التصور اللاهوتى (اليهودى والمسيحى) للغائية التاريخية ، وبين التصور الإسلامى . . . أن الغائية فى التصور الإسلامى لا تقفز فوق مؤهلات الدنيا ، ولا تختزل الدنيا بكل ما تتطلبه من معقولية وإيجابية اعتمادًا على الغاية النهائية . . . إنها تبتعد إلى الآخرة عن طريق الدنيا ، وبقدر الإيجابية فى الدنيا ـ مع استقامة الوسائل ، وشرف الغايات ـ تكون الدرجة فى الآخرة .

إن الفلاسفة العقليين فى عصر التنوير (الأوروبى) قد حاولوا علاج الخلل فى التصور اللاهوتى للغائية ؛ لكنهم سقطوا فى حفرة أعمق فجعلوا الغاية دنيوية بحتة . . . إنهم قد يكونون معذورين . . . فاللاهوت المسيحى يسىء إلى الدنيا إساءة بالغة ، ويجعلها صفرًا فى الرحلة إلى الخلود . . . بينما هى الطريقُ . . إنه يقول : اهجر الدنيا ؛ تضمن الآخرة ، وازهد فى الطيبات . . . ولا تعمر . . .

ودع ما لقيصر لقيصر . . . وحسبك أن تؤمن بالمخلص الذى انتحر [1] من أجلك . . . أما التصور الإسلامى فيدعوك إلى المشاركة الكاملة فى الدنيا تعميراً وأكلاً من الطيبات ، ومقاومة للباطل ، وصناعة لمؤسسات الحق ، ونشراً للخير والمنفعة . . . وأنت عندما تموت فى هذا الطريق تكون قد عبرت الدنيا عبوراً كريمًا ، وأديت واجبك بهذا الحضور الدنيوى المكثف . . . وإياك والغياب عن الدنيا وتركها للباطل يمرح فيها ، وإياك أيضًا أن تجعل أهدافها - مثل الفلاسفة العقليين - دنيوية بحتة . . . إن عناية الله توجه التاريخ البشرى وترعاه ، وتقوده ليوم لا ريب فيه ، لكن ذلك لا يتم على حسابك أيها «الإنسان» . . . أيها الفاعل والصانع للتاريخ والحضارة - برعاية الله . . . إنك مسؤول مسؤولية كاملة . . . وعلى قدر مسؤوليتك تحاسب ، وعناية الله تعفيك من الحساب عن الكوارث الطبيعية ، وعن كل ما هو فوق طاقتك !!

إن حركة التاريخ أمامنا قد تصيبنا بنوع من الضبابية فى الرؤية ، وقد يخيل إلينا - فى بعض اللحظات - أن الغاية غير معقولة ، لكن عدم إدراكنا لمعقوليتها لا يعنى عدم وجودها ، فعقولنا المجزأة ، والتى تعمل بطريقة محكومة بالبيئة وبمؤثراتنا الذاتية لا تقوى على رؤية المعقول الكلى . . .

لنتذكر هنا قصة موسى والخضر عليهما السلام .

إنَّ «كانط» شعر بهذه الأزمة وتساءل : «إن أحدًا لا يستطيع تجنب شعور معين بالامتعاض ، عندما يلاحظ أفعال الناس التى تعرض على المسرح الكبير للعالم ؛ فالأفراد يظهرون الحكمة هنا وهناك ، ولكن نسيج التاريخ الإنسانى - ككل - يبدو أنه منسوج من الحماقة ، وتفاهة الأطفال ، وغالبًا من الآثام الطفيلية ، وحب الدمار . ونتيجة ذلك فإننا فى النهاية حائرون فى معرفة ما هى الفكرة التى نصوغها عن نوعنا الذى نشعر بفخر عظيم بمميزاته» [2] .

---

(١) التصور المسيحى يرى أن المسيح عليه السلام قبل أن يقتل طواعية من أجل التكفير عن خطيئة أبينا آدم وخطايا أبنائه ، وكان يستطيع - كابن لله - أن ينقذ نفسه ، أى أنه - بإيجاز - انتحر ، والإسلام يرفض عملية القتل أصلاً ، ويرى أن الله أنقذه من أيدى اليهود ، ورفعه إليه ، كما أنه يرفض الانتحار !!

(٢) و . هـ . وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى ، مؤسسة سجل العرب ، مصر ١٩٦٢م ، ص : ١٦٦ .

لكنَّ «كانط» لا يلبث أن يجيب عن هذا اعتماداً على فكرته المعروفة فى فلسفة التاريخ ، وهى فكرة «التقدم» . فهو يرى «أننا إذا اكتفينا فعلاً بالنظر إلى الأحداث التاريخية من وجهة نظر الأفراد المعنيين فقط فلن يصادفنا هناك سوى جمع مضطرب من الوقائع غير المرتبطة ، والتى لا تعنى شيئًا فى ظاهرها» .

ولكن الأمر قد يختلف إذا حولنا انتباهنا إلى أحداث النوع الإنسانى بأسره ؛ بدلاً من أحداث الفرد . فإن ما يبدو من وجهة نظر الفرد فوضى وبلا قانون قد يبدو بالرغم من ذلك ذا نظام ومتعقلاً إذا نظر إليه من وجهة نظر الأنواع .

والوقائع التى بدت فيما مضى بلا قيمة تبدو وكأنها تخدم هدفًا أكبر ؛ فقبل كل شىء : إنه من الممكن أن يتبع التاريخ كما فى الطبيعة ، أو العناية الإلهية (يستخدم كانط الكلمتين بمعنى واحد) خطة طويلة المدى غايتها البعيدة هى الأنواع الإنسانية ككل ، وقد يكون ذلك بتضحية بخير ومنفعة الفرد[1] .

ويلتقى مع «كانط» فى فكرة «التقدم المطرد» كثير من فلاسفة التاريخ فى عصر التنوير ؛ فقد أشار «أكتون» إلى أن التاريخ (علم تقدمى) وقال : إننا مرغمون على افتراض أن التقدم فى الأمور الإنسانية هو الفرض العلمى الذى يكتب التاريخ وفقًا له[2] . وكان المؤرخ جيبون - أبرز مؤرخى عصر التنوير - من المتحمسين لفكرة التقدم المطرد لدرجة أنه زعم (بأن كل عصر فى العالم قد أضاف وما زال يضيف إلى الثروة الحقيقية للسلامة الإنسانية وسعادتها ومعرفتها ، وربما فضيلتها)[3] ، وقد سمى زعمه هذا (النتيجة السازة الخاصة) ، ومن الغريب أنه كتب هذه النتيجة فى كتابه المعروف عن انحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، (الفصل الثامن والثلاثين) . . لكن فكرة التقدم المطرد سرعان ما انهارت على يد فلاسفة تاريخ القرن العشرين وعلى رأسهم شبنجلر ، وتوينبى .

وعلى الرغم من وجود بعض العناصر اللاهوتية فى فلسفة توينبى ، ومن بعض تفاؤله الحذر بمستقبل للمسيحية . . إلا أن الفكر اللاهوتى كان أمره قد

(١) وولش : مدخل لفلسفة التاريخ ١٦٧ .

(٢) إدوارد كار : ما هو التاريخ ، ترجمة أحمد حمدى ، نشر مؤسسة سجل العرب١٩٦٢ ، ص : ١٤٤ .

(٣) إدوارد كار : المرجع السابق ، ص : ١٤٣ .

انتهى ، ولم يعد يحظى إلا بقليل من التقدير ؛ ذلك لأن إلغاء دور الإنسان الأساسى فى صناعة التاريخ أمر لا يمكن قبوله ، كما أن القول بأن حوادث التاريخ تخضع لقدرة ربانية ؛ لا تترك للإنسان دوراً يوازى مسؤوليته هو أمر مرفوض أيضا ؛ بل إن هذا الفكر اللاهوتى الذى يسميه الفيلسوف والمؤرخ «غوستاف لوبون» اعتقاداً صبيانيّا [1] قد أساء إلى التصور الإسلامى لفلسفة التاريخ ؛ لأن كثيراً من الأوروبيين وتلامذتهم الشرقيين لم يحاولوا دراسة الإسلام دراسة مستقلة بعيدة عن الفكر اللاهوتى العام .

ولم يكن خطأ الفكر اللاهوتى فى إغفاله الدور الأساسى للإنسان فحسب . . بل أيضًا فى إغفاله للسنن الكونية والاجتماعية التى تخضع لها جميع حوادث التاريخ . والإسلام هو وحده التصور الذى جمع بين وجود «الغاية» للتاريخ ، ووجود «معنى» لكل وقائعه إن ظاهراً أو باطنًا ، وإن عاجلاً أو آجلاً ، ووجود «عناية إلهية» ووجود دور أساسى «للإنسان» وخضوع الإنسان والطبيعة لسنن كونية ، . . . هذه الأبعاد هى أضلاع لمعادلة متكاملة متوازنة تحكم حركة التاريخ ، وتحقق للإنسان القدر المنطقى من الحرية الذى يتوازى مع قدراته وإمكاناته الزمانية والمكانية . . . وليس بينها أى تناقض كما يتصور الفكر اللاهوتى أو المفكرون العقليون !!

* * *

إن الفكر العلمانى التنويرى كان منفعلاً فى مواجهة الفكر اللاهوتى ، وكان ـ بالتالى ـ معبراً عن (أزمة روحية) وهو يقرر ـ كما يقول برجسون «إن من العبث أن يحاول الإنسان أن يعين للحياة غاية ، بالمعنى الإنسانى لهذه الكلمة . فإن الغاية ـ بهذا المعنى ـ معناها وجود نموذج من قبل لا يعوزه إلا أن يتحقق بالفعل ، أى أننا نفترض ـ حينئذ ـ فى الواقع أن كل شىء موجود دفعة واحدة ، وأن المستقبل يمكن أن يقرأ فى الحاضر . . . بينما الحياة تقدم وتتابع واستمرار»[2] . . . . ولم

(١) فلسفة التاريخ : ترجمة عادل زعيتر ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٥٤م ، ص : ٥٧ .
(٢) عبد الرحمن بدوى : شبنجلر : ٢٣ ، نشر مكتبة النهضة بمصر ١٩٤١م .

يتساءل هذا المفكر : إلى متى سيظل هذا التتابع والاستمرار ؟ إن أمامنا كثيراً من الحضارات قد اندثرت أو تحولت إلى ذرات فى جسم حضارات أخرى ؛ بعد أن ابتلعتها فى أحشائها وحولتها إلى جزء منها ، ويوما ما ستصل الحضارة الغربية إلى ساعة الأفول ، أو الانتحار ، أو الامتلاء ، لدرجة الموت ؛ وقد تقوم حضارة أخرى أكثر روحانية وإنسانية وتوازنية . . . لكن التسلسل والدور لا يمكن أن يستمرا متتابعين دون نهاية ، فوجود الزمان المطلق المتحرر المجرد ـ يمثل معنى شعريّا ـ أكثر منه معنى واقعيّا . . . !!

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] .

* * *